قدسية النار في الديانات الكوردية القديمة وإنعكاسها في الديانات السماوية الأخرى

محمد مندلاوي

الشــعب الكوردي أحد الشــعوب العريقة الذي تُشــاهد بصماتــه على صفحــات التأريــخ، رغم محاولات أعدائه و محتلي وطنه لتشــويه تأريخه المشــرف في جميــع مناحــي الحيــاة، إلا أن ضياء الشــمس لاتحجب بغربال. هذا الشعب الذي ساهم في بناء صرح الحضارة البشــرية، حيث أنّ موطنه، كوردســتان، التي رســت فيها ســفينة النبي نوح، أصبحــت بعــد الطوفان مهــد البشــرية الثانية. جغرافيــة كوردســتان في ذلك الزمــان كانت أكبر بكثير مما عليها اليوم، حيث كانت تضم السهول و الوديان و الأراضي المنخفضة، وكانت تمتد في عمق الدول المحيطة بها، و التي تحتل كوردستان اليوم. إســتناداً إلى هذا التاريخ العريق، فليس من الغرابة إذا قلنا بأن الحضارة إنطلقت منها إلى العالم، وهذا ليس إدعاءً، بل أنه مذكور في بواطن كتب التأريخ. إنّ المدنية وتشــكيل المجتمعات المتحضرة، إنطلقت مــن هــذه الأرض المعطاء، حيث بــدأت الزراعة و حفر القنوات منها، و قام الإنســان في كوردســتان بتدجين الحيوان. إكتشــاف النحاس وعملية غزل الصــوف و دباغة الجلود و بناء القرى المســوّرة و المســاكن، وكانت للإنســان الكوردي أسبقية القيام بهــذه المنجزات التي كانــت اللبنة الأولى في تحضّر الإنســان و تطوره. هذا الشــعب المثابر في التأريخ يُشــكّل الأرومة الأصيلة للأمــة الآرية. هذه الأمة العريقــة تبدأ أراضيها من أقصــى الهند إلى أقصى الشمال الأوروبي في القطب الشمالي، ولذلك عُرفوا

أيضاً بالشعوب الهندو-أوربية. تسميتهم بالآريين جاءت من النار التي كانت ترافقهم أينما حلوا و إرتحلوا، وتيمّناً بتلك النار، عُرفوا بهذا الإسم المقدس (آري)، والتي تُسمى باللغة الكوردية «آر» أي «النار» و الياء هي للـ(نسبة)، على سبيل المثال كلمة «العرب» بإضافة ياء النسبة إلها تصبح «العربي».

النار لعبت دوراً أساسياً في حياة الإنسان، حيث إستخدم الإنسان النار منذ العصور القديمة للتدفئة و الإضاءة و الطبخ و معالجة الأمراض وغيرها، و إستُخدمت في التعدين و في صهر المعادن والحدادة وصنع السيوف والدروع و غيرها. يعتقد علماء الآثار أن الإنسان قد إستخدم النار منذ عصور سحيقة. في بداية الثورة الصناعية، كانت النار الديمومة الأساسية لتلك الحقبة، حيث كانت آلة البخار تدير عجلة الصناعة و بالإعتماد عليها وصلنا إلى ما نحن فيه اليوم من التطور و التقدم الصناعي. في الوقت الحاضر تُستخدم النار في مختلف المجالات، في وسائل النقل ومحطات الطاقة و الأسلحة و أصبحت النار شعاراً للحرية و الرقي و تقدم الأمم و رمزاً وهاجاً للأولمبياد التي تجمع الشعوب من جميع القارات على الأخوة و المحبة. إكتشف العلم في عصرنا أن النار ليست حالة أو مادة بل شكل من أشكال الطاقة الحرارية والضوئية.

من أسماء النار باللغة الكوردية هي أستير- أستاره – مَخ - آر– آير- آگر- آذر- آور- آهير- آهر. آهورامزدا في الديانة الزرادشتية هو إله الخير، و آذركته هي هيكل النار. إنّ تقديس وتبجيل النار، وإختيار يوم ٢١ آذار،عيداً قومياً للشعب الكوردي، لم يأتِ من فراغ، و إنما تمّ إختيارها وفق حساب دقيق، إختارتها الإمبراطورية الميدية، التي أسسها الميديون، أجداد الكورد قبل ٢٧ قرناً، ليكون هذا اليوم رمزاً وطنياً و دينياً لهذه الأمة. توقد في هذا اليوم الأغر النار المقدسة، في كل سنة عرفاناً وشكراً لله، خالق السموات والأرض، و إعلاناً ببدأ السنة الجديدة، كتأريخ للتدوين و لتنظيم حياة المجتمع. فالصلة بين النار والدين صلة وثيقة، لقد صنف أرسطو النار كأحد العناصر الأربعة. في الهندوسية، النار هي عنصر من العناصر المقدسة، كما قدست الديانة الزرادشتيه النار وكان الزرادشتيون لهم هياكل النار. يوجد إرتباط عند الزرادشتية بين قداسة النار وقداسة الشمس. في اليهودية، فأنّ للنار قدسية خاصة عند اليهود، حيث نرى أنّ الإسرائيليين قد إتخذوا الشموع السبعة كرمز للشعب اليهودي و لدولة إسرائيل. كما أنهم يوقدون شموع الأعياد في المناسبات الدينية. كانت النار إحدى المعالم البارزة داخل هيكل أورشاليم. النار في الديانة المسيحية هي رمز لروح القدس و في وصف جهنم. في الإسلام جاء في القرآن وعيد الله بنار جهنم. ذكر القرآن الكريم الأجرام السماوية، كالشمس التي هي عبارة عن حمم بركانية من النار، خلقها الله من أجل الإنسان لكي ينعم بضيائها و دفئها وما تحملها من فوائد أخرى للإنسان والحيوان و النبات.

زرادشت

يستخدم الكتاب المقدس للزرادشتيين «آفيستا» كلمة (آتر) للدلالة على «النار». مدينة

«آتروباتــاكان» أصبحت فيما بعــد «آذربايجان»، وهذه المقاطعة تحمل إسم «آذربايجان» و التي تقع في شرق كوردستان. «آتروباتاكان» و «آذربايجان» إسمان ذو مدلـول و معنى واحـد و الذي يعني «موضع النار الزرادشــتي»، حيث كان فيها إحدى مواقد النار الســبعة المقدســة و التي كانت تُسمّى ب»آتــر» أو «آذر». المواقـد الســتة الأخرى كانت منتشــرة حينها في بلاد الآريــين. الديانة الإزدية تشــترك مــع الديانــة الزرادشــتية في رباعيتها الذهبيــة التــي تعتــبر العناصر الأربعــة طاهرة ومقدســة وهي: النار و المــاء و التربة و الهواء. إذا جدولنا هذه العناصر على عدة مربعات، ســتحتل النــار بكل تأكيد المربع الأول منــه لأنها من أكثر العناصر الأخرى قداسةً في الديانة الزرادشتية.

(مَــخ) هو أحد أســماء النار أيضــاً. في جنوب كوردســتان، توجد مدينة إزدية قــرب العاصمة هولير تحمل إســم (مَخمور). من المرجح أنّ إسم (مخمور) يعني (النار المقدسة) أي (مدينة النار المقدســة)، حيث أنّ كلمة (مــور) تعني (المقدس) و الكورد الإزديون، كما أســلفنا، يقدســون النار و يعبدون (خدا) أي (الله)، الخالق. من المفيد هنا أن نفــرق بين (التقديس) و (العبادة)، حيث أنّه من المعلــوم أن التقديس غير العبــادة. التقديس عند الأديان و المذاهب الأخــرى التي توجد فيها بعض المقدسات لا تدخل أيضاً في عبادتهم كما هو الحال في الديانة الإزديــة. إنّ المعبود مقدس ولكن ليس بالضــرورة أن يكون كل مقــدس معبود. لنعد إلى تفســير و مدلول كلمــة (مَخ) التــي هي إحدى أســماء النار في اللغة الكوردية الفديمة وتستعمل هذه الكلمة عند الكورد في أمورعدة منها القداحة بالكوردية (جوماخ)، (جو) تعنى الحصى الصغيرة (راجع قاموس طاهر صادق، طبع ســليمانية ص ١٦١) و (ماخ) أو (مَخ)، كما اسـلفنا، تعني (النار). القداحــة قديماً كانــت لا تعمل إلا بحصى خاصة بهــا، لذلك أطلقوا عليها (جومــاخ)، و التي تعني (حجر النــار). البعض يتصــور أن (جوماخ) هي تحريــف لـ(جقمــاق) و هــذا الإعتقــاد يُجانــب الحقيقــة. جاءت في لغتنامه دهخدا (طبع جامعة طهــران المجلد ١٣ ص ٢٠٤٦٦) بأنّ (مخ) هو إســم للنــار. أما كلمة (مور) فأنها تعنــي (التقديس أو المناجــات). عندما تنعي أو تناجي المرأة الكوردية لفقدان شــخص عزيز لها، فنقول باللغة الكوردية (مورتيــاري) أي تنعي أو تناجي. (مور) نجدها في تسمية الآلة الموسيقية الخاصة بالكورد الكاكائيين، حيــث يعزفون عليهــا في مناســباتهم الدينية و تســمى عندهم، كما عند جميع الكورد (تموره)، حيث أن حرف (التاء) هو إختصار لإســم الآلة ثم (مور) و حــرف (الهاء) الذي يأتي في نهاية الكلمة المذكور، هو لاحقــة، و بذلك تعني كلمة (تموره) (آلة المناجات)، لأنها خاصة لأداء الطقوس الدينية عند الكاكائيين منذ زمن بعيد، ومن ثم إستعارتها الشــعوب الأخرى من الشــعب الكوردي، حيث أن الفرس يســمونها (تنبور) وهم يقولون أنّ الكلمة غير فارســية، و العرب يســمونها (طنبور)، حيث أنه جاء في كتاب (المعربــات) للجواليقي بأن كلمة (طنبــور) كلمــة معربة. هكذا نــرى أنّ الطنبور أصبح مع مرور الزمن آلة موســيقية مهمة تلعب دوراً في الأداء الموســيقي. يــروي أبــو حاتــم عن

الاصمعي بأن (الطنبور) هـو مفردة دخيلة على اللغة العربية. في نقوش (تاق وسـان) في كرمنشاه في شـرق كوردسـتان، الـذي يـروي أيـام حكم الساسـانيين الكورد قبل الإسلام، يمكن ملاحظة عـدة آلات، منها (القيثـارة) و الناي و التموره في هذه النقوشات.

إن الكـورد، بعـد إعتناقهم الدين الإسـلامي، تمسـكوا ببعض المفاهيـم و المعتقدات والأسـماء القديمة الراسـخة في ضمائرهـم و وجدانهم ولم يعتبروها من المحرمات أو المحذورات، فكلمة (مور) أي (المقدسة) هي واحدة من تلك المصطلحات التي يطلقونها على (تربة الصـلاة) والتي عند الكورد تسمى (موره = مِهر). هناك أسماء كوردية مركبة كثـيرة أخرى التي يدخل في تركيبها حرف (التاء) الـذي يعنـي (آلـة) و بتواجده مع كلمـة أخرى، مُشـكّلاً كلمة مركبة، حينئذ فـأنّ الكلمة المركبة تدل على إسـم و مدلول الآلة. مثلاً، الكلمة (تبر)، حرف (التاء) فيهـا يعني (آلة) و كلمة (بر) تعني بالكورديـة (قطـع) و بذلـك تعني هـذه الكلمة الكوردية المركبة (آلة القطع). قام العرب بإستعارة هـذه الكلمة و تـم تعريبها الى (طبر). (شـك) أي (شـكاندن) تعني بالكوردية (الكسر) لأن (الطبر) هي آلـة للقطـع فقط و (التيشـك) التـي تعني (الفأس) هي آلة للكسر فقط. مثال آخر هو الكلمة الكوردية المركبة (تَشـي) (المغزل)، حيث أنّ حرف (التاء) يعني (آلة) و كلمة (شي) تعني (النفش) أي (آلة نفش الصوف) وماشابه. هناك المئات من هذه الكلمات التي يضيف لها الكورد حرف التاء للدلالة علـى (الآلة) لتؤدي الغرض المطلـوب من معناها.

الكلمة الكوردية (مَخ)، التـي تعني (النار) دخلت اللاتينيـة و اليونانيـة ومن خلالهمـا إلى اللغات الأوربية الأخرى، حيث يظهر لنا مصطلح (مَخ) في أقاصي أوروبا. عند النهضة الصناعية و إختراع آلة البخار التي تعمل بالنار من خلال إستعمال الفحم الحجري قبل إكتشـاف البـترول، أطلق الأوروبيون على هذه الآلة البخارية إسـم (ماخين)، حيث تم تحويـر الكلمة الى (ماشـين) عند بعض الشـعوب الأخرى. مع مرور الزمن، بتطور الصناعة، إتسـع نطاق إسـتعمال هذه التسـمية، حيث تُطلق اليوم علـى الآلات مـن مولـدات و محـركات و غيرها. بعد تفوق العالـم الغربي في جميع مناحي الحياة العلمية من زراعية و إقتصادية و صناعية و بدأوا بتصدير منتوجاتهـم و تكنولوجياتهم إلى خارج القـارة الأوربية، ومنها الشـرق الأوسـط الذي هو موطن عدة شـعوب و منها العرب، الذين إقتبسوا هذه الكلمة (ماخين- ماشين) منهم وعرّبوها، كما يفعلون مع الكلمات والمصطلحات الأجنبية الأخرى التـي تفتقر إليها اللغة العربية فأسـموها (ماكنة - مكينة)، حيث أنهم قاموا بتبديل حرف (الخاء) الى (كاف)، ليناسب النطق و اللفظ العربي.

إسم المدينة الكوردية التاريخية، كركوك، التي بناها الكورد قبل حوالي ٥ آلاف سـنة، مستمد من النار. إسـمها كان في الأصل (كركوك)، نسـبة إلى نار (بابـا گورگور) و بمـرور الزمن تحوّل حرف الـ(كاف) الكورديـة الى (كاف) الإسـلامية وهذا يحـدث عند جميـع الشـعوب والأمـم، حيث أنّ الأسـماء تتحور و تتغير عادةً بمرور الوقت، حيث أنه بعد مضي آلاف السنين، قد لا تبقى كلمة دون

أن يطالها التغيير والتبديل. (كركوك) تعني (النار الأزلية). كلمة (كر) تعني في اللغة الكوردية (لهيب النار العالى) و كلمة (كوك) تعني (مستمر أو دائم). إذا سُـئل الإنسان الكوردي عن صحته، فأنّ السؤال يكون (كونى؟ كوكـى؟) أي (كيف حالك؟ هل أنت نشـيط؟). كما أنه عند نصب السـاعة لتستمر في العمـل، يُقال (كوُك السـاعة). ذكر المؤرخون نار كركوك قبل آلاف السنين و وصفوا لهيبها وضياءها الأزلي. اليونانيون هم من الذين ذكروا هذه الشعلة الوهاجة قبل الميلاد. يشير الدكتور نوري الطالباني إلى (گورگـور) في كتابه المعنـون (منطقة كركوك ومحاولات تغيير واقعهـا القومي)، حيث يقتبس نصا ورد في كتاب العالَمين، الدكتور طه باقر و فؤاد سفر، الذين يذكران فيه أنّ إسم (كركوك) ينحدر من كلمة (گورگور). يؤيد هذا الرأي أيضاً الدكتور جمال رشيد أحمد. (گورگور) هي إسم بقعة النار الملتهبـة التي تقع خـارج مدينـة كركوك. تمت الإشـارة إليها أيضاً في كتـاب (تاريخ إيران للمؤلف حسـن بيرنيـا، ص ٧، حيـث يذكر فى حاشـية الصفحة المذكورة مـن كتابه ما يلي: حلوان كانت قلعة في جبال كوردستان بالقرب من كركوك.

النار الإزدية

جاءت في صفحة الحقيقة الدولية بأنّ الإزدية تشـعل النار إلى أيامنا هذه في الأماكن المقدسة و في منازل رجال الدين الإزديين أيام الأربعاء والجمعة والأعيـاد. بما أن الشـمس و القمر والنجوم تبعث الشعاع و النور، لذلك فأنّ الإزديين يقدسونها أيضاً. إن الإزديين الذين هم مـن الكورد الذين حافظوا على هذه الديانة القديمة على مر التاريخ، كلفهم الإحتفـاظ بدينهم التوحيدي الكثير من الدماء و الدمـوع خوفاً من من الإرهـاب و الإضطهاد. كان الإزديون يتظاهرون في بعض الأوقات بالتخلي عن بعض الطقوس الدينية (ما يسـمى عند الآخرين بالتقيـة)، إلا أنّ تلك الطقوس والمقدسـات بقيت حية في ضمائرهم و وجدانهم و مارسوها في الخفاء، و منها النارالمقدسـة، هذا العنصر المقدس نراه في (لالش)، حيث تنير المعبد ٣٦٥ فتيلة (شـمعة) في أيام الأربعـاء و الجمعة و الأعياد و يرفض الإزدي إدخال المصابيـح الى هذه البقعـة المباركة. يقول الأسـتاذ زهير كاظم عبود بهذا الصدد: و لم يزل الإزدي حتـى اليوم يرفد المكان المقدس في منطقة لالش بالزيتون و زيت الزيتون الذي يتم تصنيعه لإدامـة اشـتعال النار التـي تضيئ أروقـة المكان المقدس بالرغم من كل التقنية الحديثة و دخول الكهرباء إلى المعبد. في المناسـبات الدينية يوقدون النار نسـاءً ورجـالاً ويقفون حولهـا كطقس من طقوسـهم الدينية وهذا ما نشـاهده في المناسبات التي تُنقل على شاشـات التلفزة الكوردسـتانية. الإزدي يتوجـه في كل يـوم عند الطلـوع و عند الغروب نحو الشـمس لإداء فرائضه لأن الشـمس هي آية من آيات الله وضعها في كبد السـماء ليُحيي بهـا الأرض وما عليها. إن الإزدي يبني قبة معبده على شكل قرص الشمس ثم قطر القبة على شكل أشعة الشمس وقاعدة القُبة رباعي الشكل يرمز إلى الجهات الأربع.

الديانة الإزديـة معروفة بالشمسـانية أيضاً نسـبة الى الشمس لتقديسـهم إياها. يقول الأستاذ

صباح كنجي في إحدى مقالاته بأنّ الشمس في الديانة الإزدية هي إحدى تجليات الله . لِما لا تكون النار أيضاً إحدى تجليات الله على الأرض كما هي الشمس في السماء؟ من المرجح جداً أنّ التقديس و التبجيل و التوقير في الديانة الإزدية، للأنبياء أو الأولياء أو المخلوقات غير البشرية، لا يتم فقط بسبب شخصهم أو منزلتهم الروحية، بل أنّ المحفّز الأكبر لهذا التقديس هو التكوين الناري للشخصيات التي يتم تقديسها أو لَعب النار دوراً بارزاً في حياتهم، مثل الملك طاوس (الشيطان) الذي توقرّه الإزدية لا لسبب كونه ملاكاً فقط، بل لذاته النارية لأنه مخلوق من هذه المادة المقدسة. كذلك إبراهيم الخليل الذي، بأمر الخالق، لم تمسه النار بسوء ولم تحرقه، لذلك فأنّ الإزديين يبجّلونه و للعلم بأنّ إسم والد النبي إبراهيم هو (آزر). (خدر ألياس) الذي حسب المعتقد اليهودي، صعد الى السماء بعربة نار و بسبب ذلك، فأنّ الإزديين ينظرون إليه بعين القداسة، و لذلك يحمل الكثير من الإزديين إسم (خدر) و (إلياس). حتى أنّ النبي نوح الذي رست سفينته على سفح جبل آرارات الذي هو جبل النار و إسمه يدل عليه حيث أنّ (آر) تعني (النار) باللغة الكوردية. قام العرب قديماً بتدوين إسم جبل آرارات في كتبهم بإسم (جبل النار) لأن العرب حتى بعد صدر الإسلام كانوا يقولون للبركان (جبل النار)، حيث أنّ جبل آرارات عليه مئات الفوهات البركانية التي قد خمدت قبل زمن ليس ببعيد تاريخياً. هناك من يتصور خطأً بأنّ إسم هذا الجبل إسم أرمني، بينما أنّ كلمة (آرارات) ليس لها وجود في اللغة الأرمنية، حيث أنّ الأرمن يسمّون هذا الجبل بإسم (ماسيس). هناك مَن يدّعي بأنّ هذه التسمية عبرية أو آشورية، إلا أنّ هذا غير صحيح، حيث أنّ إسم (آرارات) هو إسم كوردي، بالإضافة الى أنّ منطقة آرارات هي موطن الشعب الكوردي منذ أن سكنها الإنسان الى يومنا هذا والجبل المذكور يقع على أرض كوردستان. جاء في كتاب ملحمة كلكامش الذي تم طبعه في سنة ١٩٧٥ (منشورات وزارة الإعلام - الجمهورية العراقية ص ١٤١ لطه باقر) بأنّ إسم الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح البابلي هو جبل (كورديين) أي جبل ألاكراد، إستناداً الى رواية (بيروسوس) (برعوشا، الكاتب البابلي، القرن الثالث ق.م.)، حيث كما نرى يُسمّي (برعوشا) جبل آرارات بإسم جبل الكورد.

النار المقدسة، قبلة زرادشت

في مدينة إيلام في شرق كوردستان، توجد عدة مواقد للنار خاصة بالديانة الزرادشتية، وإنّ قسماً من هذه المواقد ترجع تأريخياً إلى زمن الساسانيين و قسم آخر منها تعود إلى زمن أبعد من هذا التأريخ. أحد هذه المواقد هو موقد (كلم) الذي يقع بالقرب من قرية (كلم) التابعة لإيلام، و إنه يقع داخل معبد زردشتي تبلغ مساحته ١٥٠ ألف متر مربع و بإرتفاع ٦ أمتار. بالإضافة إلى هذا الموقد، توجد حول مدينة إيلام عدة مواقد أخرى التي أهميتها التأريخية لا تقل عن موقد (كلم).

لا يمكن التحدث عن مواقد النار الزرادشتية، دون ذكر شيخ الآثاريين الكورد الأستاذ عبد الرقيب يوسف، أطال الله في عمره، الذي إكتشف لنا

في السـنين الأخيرة عدة مواقـد للنار التي هي من بقايا الديانة الزرادشتية قرب دهوك، ولهذا الآثاري الجليل إكتشافات أخرى قيّمة في جنوب كوردستان.

يقول الأسـتاذ توفيق وهبي بأن الكورد كانوا يعبدون الشـمس قبل أكثر من ٤٠٠٠ سنة. إن إله الشمس كان إله العدل والشرائع في سومر. مثل إله الشمس، إنتشـرت عبادة إله القمر في أماكن كثيرة من الشـرق الأدنى. في وقتنا الحاضر نرى الشمس السومري تتوسط عَلَم كوردستان، حيث لا يخفى أنّ الكورد هم أحفاد السومريين

عرضنـا في الحلقـة الأولى خصوصيـة النـار و أهميتهـا في حيـاة الشـعب الكـوردي، كعنصر هام، رافقتهم و ساعدتهم في مراحل حياتهم عبر العصور الغابرة. لذلك قدسـها الكـورد و أصبحت جزءً مهماً من دياناتهم، كما في الديانات الإزدية و الزرادشـتية. تبجيـلاً لمكانتها، أعطى الكورد النار أسـماء عديدة، و التي أشـرنا إليهـا في الحلقة الأولى. نوضح في هذه الحلقة أهمية النار وقداسـتها عند بعض الشعوب و الأديان، التي يتهمون الكورد ظلماً بأنهم عبدة النار، رغم أنّ قدسية النار مذكورة في كتبهم وعقائدهم و أنها آية من آيات الله. إنكار أصحاب الديانات المذكورة لقدسية النار عندهم متأتٍ من محاولتهم للإنسلاخ عـن معتقداتهم القديمة التـي يعتبرونها معتقدات كافـرة. كما أنهـم يحاولون إلغاء حقيقـة أن الكورد قبل غيرهم خاضوا غمار البحث و الإكتشـاف. هذه الشـعوب لم يكتفوا بإنكار الدور الكوردي التأريخي، بل قاموا بسرقة إكتشافاتهم و الإستحواذ على تراثهم و إبداعاتهـم. لا تـزال النار مقدسـة عند الكورد، حيـث أنّ الكوردي يتوجّه وجهه شـطر النار خلال أداء فرائضه الدينية. الآخرون تراهم يقدسون النار بشكل خجول و و دون الإقرار بذلك.

مكانة النار في الديانة اليهودية

جاء في الكتاب المقدس، العهد القديم، التكوين ١، ثم أمر الله: (لتكن أنوار في جَلَد السماء لتفرق بين النهار و الليل، فتكون علاماتٍ لتحديد أزمنةٍ وأيام وسـنين وتكون أيضاً أنواراً في جَلَد السماءِ لتُضيءَ الأَرضَ). هكـذا كان. وخلـق اللهُ نورَين عظيمين، النور الأَكبر ليُشرقَ في النهار، والنورَ الأصغَرَ ليُضيءَ في الليل، كما خلق النجوم أيضاً وجعلها اللهُ في جَلَد السـماء لتُضيء الأرض، لتتحكمَ بالنهارِ و بالليلِ و لتُفرقَ بين النور والظلام. رأى اللهُ ذلك فاستحسنَهُ. جاء مسـاءُ ثـمّ أَعقبه صَباحُ فـكانَ اليوم الرابع. لقدسـية النارعندهـم، تحرم الديانـة اليهودية بعد غروب شمس السـبت أي عمل أو أيقاد للنار. الشـموع السبعة التي تُشاهَد في المناسبات اليهودية هي شـعار دولة إسرائيل. يقول جورج حبيب في كتابه (اليزيدية بقايا دين قديم) (الطبعة الأولى ص ٤٦) أنّ (الياس) هو (إيل)، وهو إسم عُرف عند العديد من الشعوب السامية القديمة، على أن إسمه يذكرنـا بالنبي العبري (إيليـا) وكانت آخرته إنه صعد إلى السماء بجسده دون وفاة في عربة من نار. كانت من واجبات الكهنة القيام بالذبائح اليومية والأسبوعية والشـهرية والسنوية. عدا ذلك فإنهم كانوا يخدمون في الاحتفـالات والتطهير ويعتنون بالآنية المقدسـة والنار المقدسـة والمنارة الذهبية وأثـاث المقدس. كانوا يطلقـون الصوت في الأبواق المقدسة ويحملون تابوت العهد ويقضون في دعاوي الغيرة ويقدرون المال للافتداء وينظرون في شـأن

البرص ويفسرون الناموس للشعب، ويقومون باستشارة الله بواسطة الاوريم والتميم (خر ٢٨: ٣٠ وعز ٢: ٦٣ وعد ١٦: ٤٠ و ١٨: ٥ و ٢ أخبار ١٥: ٣ وار ١٨: ١٨ وحز ٧: ٢٦ ومي ٣: ١١). جاء في القرآن الكريم سورة النمل آية ٧ (إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون). كانت منارة خيمة الاجتماع عند اليهود مصنوعة من الذهب الخالص النقي. وضع الرب تصميمها وأمر بها موسى. كانت ضخمة الحجم، يبلغ ارتفاعها ستة اقدام و مكوّنة من قاعدة و ساق و ست شُعَب، وتزينها كاسات و عجز و ازهار وملاقط و منافض، كلها من الذهب. المنارة كانت تحمل سبعة اسرجة، سراجاً فوق كل شعبة، وسراجاً فوق كل نهاية ساق. اما الزيت المستعمل للاضاءة فكان نقياً جداً. كانت الاسرجة تُضاء في المساء وتُطفأ عند الصباح (خر ٢٥: ٣١و ٣٧: ١٧ و لا ٢٤: ٤ و عد ٨: ٢). صنع سليمان عشر منائر من ذهب وضعها في هيكل الرب الذي شيده في القدس، وقد حُملت فيما بعد الى بابل مع باقي المحتويات المسبية (امل ٧: ٤٩ و ٢ اخبار: ٧ و ار ٥٢: ١٩). تمت تسمية المنارة نسبةً إلى النار التي توقد فيها للإضاءة. هذه التسمية مأخوذة من عنصر النار التي تنعكس ضياؤها على الأشياء التي حولها، حينئذٍ يسمى «نور»، حيث أن النور مكتسب من جسم آخر، كما هو الحال في نور القمر الذي ما هو إلا إنعكاس لضوء الشمس على القمر.

وضع زربابل في هيكله منارة واحدة فقط، ثم وضعها (هيرودس) في هيكله الى أن سلبها (تيطس) الروماني و أمر أن تُحمل أمامه في مواكبه التي كان يقيمها في روما، ثم وضعها في هيكل السلم في تلك المدينة. في سنة ٤٥٥، نُقلت المنارة الى قرطجنة، حتى سنة ٥٣٣، حيث استرجعها (بليساريوس) وحملها الى القسطنطينية ومنها الى القدس حيث وضعت في كنيستها المسيحية، وضاعت المنارة بعد ذلك الحين. حمل ابراهيم النار حين صعد الجبل ليذبح ابنه (خر ٢٢ :٦). كانت النار من أهم ضرورات حياة الانسان (سي ٣٩ :٢٦)، فهي تُستعمل لطبخ الأكل (خر ١٢ :٨-٩)، وللتدفئة (إش ٤٤ :١٦؛ أع ٢٨ :٢)، والانارة (يه ١٣ :١٣). النار عامل تدمير. كانت النار تُستعمل لتدمير كل ما يحمل مرضًا أو نجاسة (لا ١٣ :٥٢، ٥٥)، بل لإزالة الإنسان الذي اقترف ذنبًا جنسيًا خطيرًا (لا ٢٠ :١٤؛ ٢١ :٩)، وتدمير الأوثان (تث ٧ :٥؛ ١٢ :٣). كانت النار سلاح حرب يتوخّى تدمير الاعداء (عد ٣١ :١٠؛ يش ٦ :٢٤). (ج). كانت النار ضروريّة من أجل نار الذبائح وفي خدمة الهيكل. لهذا، يجب المحافظة على نار مذبح المحرقات (لا ٦ :٥-٦). في وقت السبي، أخفيت نار الهيكل (٢مك ١ :١٩).

إن عبارة «ذبيحة مقدّمة بالنار» خاصة بالتقليد الكهنوتي. قد حكمت التوراة حكما قاسيًا (لا ١٨ :٢١؛ تث ١٢ :٣١) على ذبح الاشخاص عامة و الاولاد خاصة بالنار (٢مل ١٦ :٣؛ ١٧ :١٧). ٢) لاهوت النار. (أ) نار الظهورات (تيوفانيا، ظهور الله). في النار يُظهر الله مجدَه وعظمته (تث ٥ :٢٤؛ عب ١٢ :٢٩). كانت النار تحيط بالربّ حين ظهر لموسى (خر ٣ :٢؛ ١٩ :١٨). خلال الليل، كان عمود من النار يقود شعب اسرائيل عبر بريّة سيناء (خر ١٣ :٢١؛ ١٤ :٢٤). سمع (حزقيال) نداء الله

الذي ظهر له في وسـط النار (١ :٤، ٢٧-٢٨). أما في حوريـب، فالله ليس في النار (امل ١٩ :١٢)، مع أنه تجلّى لإيليا على جبل الكرمل، مرسـلاً النار على الذبيحة (امـل ١٨ :٣٨). الـروح القدس حلّ على الرسـل بألسنة من نار (أع ٢ :٣). (ب) النار وسيلة تطهير أو عقاب. يصوَّر غضبُ الله مرارًا بشـكل نار (مـز ٧٩ :٥؛ ٨٩ :٤٧؛ إر ٤ :٤؛ صـف ١ :١٨). فالنـار تطهّـر، تنقّي، تدمِّر ما هو نجس. لهذا، فالنار هي أداة عقاب الله ودينونته (مز ٥٠ :٣؛ ٨٣ :١٥؛ إش ٢٦ :١١؛ مر ٩ :٤٩؛ يع ٥ :٣؛ رؤ ٨ :٨-٩). النار هي إحدى العلامات التي تعلن مسبقًا مجيء الرب (يوء ٣ :٣). سـوف تتمّ دينونة الله بالنـار (إش ٦٦ :١٦؛ حز ٣٨ :٢٢؛ ملا ٣ :١٩) التي تمتحن نوعيّة أعمال البشـر (اكـور ٣ :١٥). هناك من يرى علاقة بين الشـعلة والسرافيم، والجامع بين الاثنين هو النار (س ر ف، أحـرق) التي تدلّ على حضـور الله. في العبرية س ر ف ي م. اسـم أعطاه إش ٦ :٢، ٦ لكائنات علويّة تشـبه البشـر، لها ثلاثة أزواج من الاجنحة وهي تقف فوق عـرش الله في «هاكل» الهيكل. تفسـير اسمهم : الحارقون. الشمس: في العبريّة : ش م ش. في اليونانيّة : هيليوس. الشمس إله لدى عبّاد الأوثان، لكن التوراة تعتبرها سراجًا في النهار، تعتبرها النيّر الأكبر تجاه النيّـر الأصغر الذي هو القمر. في عدد كبير جدًّا من الحضارات القديمة، نعمت الشـمس بعبادة واسـعة جدًّا. ففي الشـرق الأوسط، كثُرت العبادات الشمسيّة : الآلهة «ش ف ش» في أوغاريت ولدى العـرب في الجنوب ((كان عنـد العرب قبل الإسلام إسم علم يسمون به، كعبد شمس)). كانت الشمس إلهًا عند البابليّين (شمش) وعند الحثيّين وعند المصريّين. في وادي النيل، سـيطر اللاهوت الشمسـيّ لدى كهنة رع في أون (هليوبوليس)، على اللاهوت اللاحق، ولاسيّمَا لاهوت أمون. معظم الآلهة المصريّة ارتبطوا آجلاً أو عاجلاً بالإله «رع». والإله الصقـر المحامي عن الملكيّة الفرعونيّة، حورس (ح ر)، كان هو نفسـه من جوهر الشـمس. وعرفت فلسطين هي أيضاً عبادات الشمس. وما يشهد على ذلك أسـماء الأمكنة : بي شمش. عين شمش الذي هو حرس (جبل الشـمس)، وحرس يقابل شمش وإن لم تكن مسـتعملة مثلها). وهناك أسـماء علم مثل شمشون. نجد بعض العبارات الليتورجيّة في المدائـح (مز ١٩). كما نجد كلام أي ٣١ :٢٦-٢٧ الذي يقول إنّه لم يرسل قبلة تدلّ على عبادته لكوكب النهـار. مع أن التوراة تجعل من الشـمس خليقة الله (تك ١ :١٤). و أن الشـريعة اليهوديّة حرّمت كلّ عبـادة للكواكب (تث ٤ :١٩؛ ١٧ :٣-٤)، إلاّ أنّ تجربة عبادة الشـمس قد تأثّرت بالأشوريّين، فوجدت لها مناخًـا مؤاتيًا في بلاط بعـض ملوك يهوذا (٢مل ١٦؛ ٢١ :٣-٤). حاول (يوشـيّا) ولكن عبثًا، أن يضع حدًّا لهذه العبادة (٢مـل ٢٣ :٦، ١١)، فدمّر تماثيل الأفراس (الفرس هي حيوان مكرّس للشمس) التي نُصبت في الهيكل. حاول بعض الشـرّاح أن يربطوا بـين مونوتاويّـة (عبادة الإله الواحـد) الفرعون امنحوتـف الرابع (اخناتون، القرن الرابع عشـر) المسـتندة إلى الشـمس، ومونوتاويّة موسى، حيث أنّ ديانة أتون (القرص الشمسـيّ) ليست شكلاً من أشكال المونوتاويّة، بل هي موقف جذريّ وعقلانيّ تجاه بعض نواحي اللاهوت الشمسيّ، بل ظاهراتيّة متسـامية حيث يبدو الإله منظورًا بشكل مباشر،

ردًّا على لاهوت كهنة أمون الذين شدّدوا على ديانة باطنيّة لا يصل إليها إلاّ عدد قليل من الناس. نعود إلى الكتاب المقدّس. فالله ثبّت الشمس في الفلك لتحدّد النهار وتشرف عليه (مز ١٦:؛ إر ٣١ :٣٥؛ ٢صم ٢٣ :٤؛ حك ١٦ :٢٨؛ تك ١٥ :١٢). الشمس هي سرّ الحياة (تث ٣٣ :١٤] كما في النص الأصلي[؛ ملا ٣ :٢٠)، و الحرارة (خر ١٦ :٢١؛ سي ٤٣ :٢١) التي تنمو بتقدّم النهار (نح ٧ :٣) و تحرق أكثر من النار (سي ٤٣ :٤). الشمس بقدرتها (قض ٥ :٣١؛ سي ٤٣ :٣-٤) تبدّد الضباب (حك ٢ :٤). و لكن قد تحمل الدمار للبشر وللطبيعة (إش ١ :٥-٦؛ يون ٤ :٨؛ مت ١٣ :٦ وز؛ سي ٤٣ :٢-٤. الجفاف وقلّة المطر). هذه الحرارة المخيفة التي تحملها الشمس، تشهد على قدرة الله (سي :٥) الذي يستطيع إذا شاء أن يقطع مسيرتها المنظّمة (مز ١٩ :٥؛ ٧؛ أي ٩ :٧). في نظر جا ١ :٥، انتظام هذا الكوكب الذي يُشرف على الكون كلّه، هو صورة عن رتابة في الكون تعود يومًا بعد يوم وتتكرّر فعلاً بعد فعل. وكان للنجوم سلطان على الوثنيين، وعلى عباد الاصنام من اليهود، ممن وجدوا فيها مظاهر غريبة تستحق العبادة نفسها بدل عبادة خالقها وصانعها وهكذا اصبحت النجوم معبودات للكثيرين (تث١٩:٤ و ٢ مل ١٧: ١٦) و بُنيت لها المعابد والمذابح و قُدمت التقدمات (٢ مل ٢١: ٥ و ٢٣: ٥) وكان عباد النجوم يؤمنون أنها تدير الكون والبشر أنفسهم (أي ٣٨: ٣١). كان عباد الكواكب يعتقدون بأنها تنبئهم بالمستقبل.

يقول الدكتور رشيد الخيون: إن الشيخ محمد جواد مغنية يقترب من الصواب عندما قال في الصابئين: «قوم يقرون بالله و بالميعاد و ببعض الأنبياء، ولكنهم يهتدون بتأثير النجوم في الخير و الشر، و الصحة والمرض، وعلى خلاف مَنْ اشتق تسمية الصابئة من صبأ العبرانية أي غطس و توضأ، وجد مغنية أن التسمية مشتقة من» صبأت النجوم أي طلعت»، و يعدهم بأقدم الأديان في التاريخ. (أقدم الأديان، فيه شيء من المغالات) و يضيف الدكتور رشيد الخيون، يبدو لي أن مغنية اطلع على سلسلة المقالات التي حبرها الأب أنستاس الكرملي في مجلة «المشرق» في سنة ١٩٠٠- ١٩٠١، وذهب إلى اشتقاق تسميتهم من الضوء.

قداسة النار عند معتنقي الديانة اليهودية يُشير إليها الرب الذي يأمر اليهود أن يستريحوا في هذا اليوم، حيث جاء في الوصايا العشر أما اليوم السابع فتجعله سبتاً للرب إلهك فلا تقم فيه بأي عمل. ومن الأعمال التي يمتنعون القيام بها يوم السبت هو تحريم إيقاد النار. وجاء في الكتاب المقدس أنه عندما تاه شعب الرب في البرية كانوا يتبعون سحاباً في النهار و في الليل يتحول السحاب إلى النار فيتبعونه كدليل لهم في الصحراء. نراهم اليوم يضعون الشموع السبعة أمامهم أو خلفهم في كل المناسبات كرمز ديني و كشعار لهم كما تكلمنا بشيء من التفصيل عن بعض التقاليد الدينية لهم فيما يتعلق بقدسية بالنار.

كيف تنظر الديانة المسيحية إلى النار وتتعامل معها

تكلمنا آنفا عن النار الكوردية و دورها في المجتمع الكوردي في العصور القديمة و في العصر الحديث. في العدد الثاني كشفنا عن أوجه النار

في الكتـــاب المقدس، (التوراة) العهـــد القديم، وهو كتـــاب خـــاص في الديانة اليهوديـــة. في هذا العدد نتحدث عن النار في الديانة المسـيحية وما يقوله الكتـــاب المقدس،(الإنجيل)، العهـــد الجديد، بصدد هـــذا الموضوع الآية، التي ذكرت في انجيل يوحنا ٨ = ١٢، أنا هو (نور) العالم، مَن يتبعني، فلا يمشـــي في الظُلمة، بل يكون له (نور) الحياة،ترســـم مسار دعوة السيد المسيح، لخلاص البشرية من الخطايا. الأرثوذكس الشـــرقيون يحتفلون بمناســـبة سبت النور الذي يصادف قبل حلول يوم (أحد الفصح). كلمة (النورية) هي تأنيث كلمة (النوري) والتي هـــي لقب مريـــم العذراء عند بعض المســـيحيين. بعيداً عن الرمزية و التأويل، فأن النار، كما جاءت في قواميس اللغة العربية هي عنصر طبيعي فعال، تمثله النور و الحرارة المحرقة.

جاء في لسان العرب المَنارة (الأصل «مَنْوَرَة»)هي موضـــع النور، مـــن الأمثلة على تلـــك هي منارة المراكـــب. والمســـرجة والمِئْذنة. يذكـــر محمد بن أبي بكـــر أيوب الزرعي، أبو عبـــد الله، (المتولد في ســـنة ٦٩١) (والمتـــوفي في ســـنة ٧٥١ ه) نص العهدة العمريـــة في كتابه المعنـــون(أحكام أهـــل الذمة) في صفحـــة(١١٦٢) والذي يتألف مـــن ثلاث أجزاء. نحن هنا لســـنا بصدد ذكر النـــص الكامل للعهدة، بل نذكرالنقطة التـــي هي موضع إهتمامنا. كتب نصارى الشام إلى الخليفة عمر(رض) عهدةً، جاءت فيها مجموعة شـــروط وجب عليهم الإلتزام بها و التي تقول: لا يظهروا (النيران) معهم. يتضح من هـــذه الوثيقة أن النصارى كانـــوا يرفعون النيران أثناء إداء طقوســـهم. يتبـــين لنا مما تقدم أن رفع النيران قد تم إستبداله في العصور الحديثة وذلك بإحلال الشموع والقناديل محلها.

جـــاء في إنجيل متى ص ٤ عـــن يوحنا المعمدان: (أنا أُعمدكم بالماء لأَجـــل التوبة، ولكن الآتي بعدي هو سيعمدكم بالروح القدسِ، و بالنارِ. فهو يحمل المذرى بيده و ســـينقِي بيدره تماماً: فيجمع قمحه إلى المخـــزنِ، و أَما التـــبن فيحرقه بنـــارٍ لاتُطفأُ!). تحدّث يســـوع عن النار التي لا تنطفئ (مت ٥ :٢٢؛ ١٨ :٨؛ ٢٥ :٤١). قـــوّة النـــار التي تدخل في كل مكان، تســـتطيع أن تنقّي كل شـــيء. في هذا المعنى يمتلك العماد المسيحيّ أن يفعل ما تفعله النار (مت ٣ :١٠). (ج) النار صورة. تُســـتعمل صـــورة النار للكلام عن خطر كبير (مز ٦٦ :١٢؛ إش ٤٣ :٢)، عن ألم وعذاب (مز ٣٩ :٤)، عن كلمة الله التي لا نستطيع أن نحيط بها (إش ٥٠ :١٩)، عن قوّة الحبّ (نش ٨ :٦، عن لسان الله (إرعن حضوره (مز ٦٨ :٣)، عن التســـوّل (ســـي ٤٠ :٣٠:٩)،عن (مز ٦٨ : ٣)، عن الشـــر (إش ٩ : ١٧). ويُقال في ملا ٣ :٢٠ أن شـــمس البرّ ســـتطلع في يوم الربّ. وتؤكّد الأناجيل (مت ٢٧ :٤٥-٥٦) أن الشـــمس أظلمت ساعة الصلب، ممّا حدا ببعض الأيقونوغرافيا المســـيحيّة إلى أن تجعل منذ القرن السادس الشمس والقمر مع صليب يســـوع. إبان سيطرة الكنيسة في أوروبا وتشكيلها محاكم التفتيش، كان المدان في هذه المحاكـــم يحكم عليـــه حرقاً بالنـــار. كوكب الصبح (٢ بـــط ١: ١٩) أنـــه رمز لمجيء المســـيح الثاني الذي يبدد الظلمة، يســـتعمله كاتب ســـفر الرؤيا (رؤ ٢: ٢٨) بمعنى الزمن الذي ينير كالنجوم في عالم البشر المظلم. ثم أنه اســـتعمله في رؤ ٢٢: ١٦ رمزاً للمسيح الذي هو النور الهادي إلى الحياة الصالحة.

جاء في (إنجيل متى) أنه عند ولادة المسيح ظهر كوكب دري في السماء ليكون دليلاً للزرادشتيين ليساعدهم في السفر من إيران (١) الى البيت المقدس لزيارة المولود. النجم الذي ظهر للمجوس (مت ٢: ١-٢١). و إعتقاد معظم الناس بأنه كان ظاهرة خارقة، فوق الطبيعة المألوفة، قصد الله منها إرشاد المجوس إلى مزود المسيح الطفل، تتمة لنبوءة بلعام التي كانوا يعرفونها (عد ٢٤: ١٧). لقد أدى النجم مهمته و قاد المجوس من موطنهم إلى القدس، إلى بيت لحم. قبل عيد رأس السنة الميلادية بشهر، يبدأ المسيحيون بإيقاد الشموع إبتهاجاً بميلاد السيد المسيح. في الوقت الراهن تمّ إستبدال الشموع بالمصابيح. كما أنّه في الثالث عشر من ديسمبر تصادف ذكرى القديسة (سانتا لوسيا)، حيث تحمل الفتيات الشموع على رؤوسهن التي ترمز للنور و تكريماً لهذه المناسبة. إسم يوم الأحد في اللغات الأوروبية (سونداي)، يعني (يوم الشمس)، الذي تمت تسميته بسبب تقديس الناس للشمس قبل إعتناقهم الدين المسيحي. عاش هذا الإسم منذ ذلك الوقت الى يومنا هذا و هكذا إستمر وجوده عند المسيحيين بعد إعتناقهم الديانة المسيحية. عند الدخول إلى الكنيسة يُشاهد الصليب وحوله أربعة مصابيح، و في وسط الكنيسة قنديل معلق، فيه شمعة أو نار. عندما يقرأ القس أو رجل الدين المسيحي التراتيل، توضع أمامه شمعتان، واحدة على يساره و الأخرى على يمينه و اللتان ترمزان إلى البشارة والقدسية. عند تشييع الجنائز، يوقدون النار في قنديل صغير، يحرقون فيه البخور و يحملونه أمام المتوفي إلى مثواه الأخير. عندما تقع حادثة تؤدي إلى وفاة شخص أو أشخاص في الدول الغربية، يقوم الناس بإشعال الشموع في المكان الذي وقع فيه الحادث، في مناسبات أخرى مفرحة أو محزنة يوقدون الشموع أيضاً أمام المحلات أو موقع الأحتفال تيمناً بتلك المناسبة. هذه الطقوس لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا.

في الديانة المسيحية فأنّ النار هي رمز لروح القدس حيث يقول يوحنا المعمدان: هو الذي يعمدكم بروح القدس و بالنار، والتعميد هو حفل يقام للطفل في الكنيسة: تنصير الطفل ليصير مسيحياً و ذلك بغسله بالماء المطهرعلى يد القس أوالراهب. كما جاء في سياق المقال، كيف أنّ النار في الكنيسة تكون معلقة في وسطها لأنها دليل البشارة والنور، ثم وضعها حول الصليب و إيقاد النار أو الشموع في المناسبات العديدة.

هامش:

(١) كانت (إيران) في زمن ولادة السيد المسيح أوسع كثيراً مما عليها اليوم، حيث كانت تشمل كلاً من (أفغانستان) و ما تسمى اليوم ب (تركيا) و (أرمينيا) و مناطق واسعة من (آسيا الوسطى) و جمهورية (العراق) الحالية و كانت تسمى ب (آريان) أي أرض الشعوب الآرية والتي كانت تتألف من الكورد و الفرس و الأرمن و البلوش و البشتو و الدري . الشعب الكوردي كان أول هذه الشعوب الذي أسس إمبراطورية في مملكة آريان الذي أسس في البداية دولة (إيلام) التي كانت تصل حدودها إلى مضيق هرمز شرقاً و نهر دجلة غرباً، بينما كانت الإمبراطورية (الميدية) أراضيها أوسع رقعةً من دولة (إيلام).